

ملخص

تتوسط منطقة وادي الصفصاف إقليم ولاية سكيكدة، (الجزائر) يشقها نهر صغير -هو الذي تحمل المنطقة اسمه- تغزر مياهه شتاءً وتقل صيفاً وكانت إدارة الاستعمار الاستيطاني الفرنسي قد اعتبرتها منطقة نموذجية لتوطين الآلاف من جنسيات أوروبية عديدة وزعت عليهم الأراضي وأقامت لهم قرى وزودتهم بكل الوسائل لإنجاح سياسة الاستيطان. في مقالنا هذا أردنا تقديم لمحة عن الاستيطان في هذه المنطقة وما نتج عنه من آثار أبرزها العمران ذي الطابع الكولونيالي الذي يمثل شكلاً معمارياً متميزاً كان ينبغي العناية به، لأنه إضافة إلى قيمته التاريخية والحضارية يمكن أن يلعب دوراً في الجانب الاقتصادي "السياحي بالأساس" وتجاوز فكرة رُوِّجت لها بعض الدوائر المغلقة شعارها "محو آثار الاستعمار" التي ترتبت عنها أضرار كبيرة لحقت بذلك العمران الذي يمثل -فضلاً عن قيمته المعمارية- لوحة تاريخية مليئة بالعبء لو أحسنت الإدارة المعنية سياستها إزاء هذا التراث الهام.

مقدمة

لقد ارتبط تاريخ منطقة سكيكدة بتاريخ أفريقيا الشمالية والحوض الغربي للبحر المتوسط ولذلك تعاقبت عليها عدة حضارات تركت كلٍ منها بصماتها التاريخية ممثلة في العديد من المعالم والآثار. ووادي الصفصاف الذي يمتد من جبال زردازة إلى البحر المتوسط من أهم المجالات الطبيعية المتميزة في شمال التل القسنطيني، وهو ممتد في شكل رواق طويل من الجنوب إلى الشمال على طول (٤٠) كم من بلدة الحروش إلى مدينة سكيكدة (انظر الخريطة رقم ١)، وكان مصدر انتقاء مجالي من طرف المستعمر الفرنسي الذي أحدث تغيرات على التنظيم العقاري مست الأراضي الخصبة المجاورة لصفافه، وكان تنظيم المجال البكر للوادي الذي كانت تغمره المستنقعات -ما قبل الفترة الكولونيالية- قد تمّ بنظرة جديدة مستوردة أحدثت تغييراً جذرياً في المجال، طبعه تحول في خريطة استغلال الأرض على صعيد الجانب التنظيمي، التقني والهيكلية، من ذلك أنه تم تكوين مجموعة من المحيطات الفلاحية المهيأة لتخللها شبكة من المراكز الفلاحية بموازاة الامتداد الطولي للطريق الروماني القديم على مسافات متقاربة كنموذج للتعمير في الريف^(١) في فترة قصيرة جداً ما بين (١٨٤٤ - ١٨٤٧) وكان ذلك يجمع بين الهدفين الأمني والاقتصادي.

تعتبر هذه المراكز رمزاً للنموذج الأوربي، حيث شهدت استيطاناً بشرياً مكثفاً عن طريق استخدام أفواج بشرية من جنسيات أوروبية عديدة من مناطق جغرافية مختلفة، وخاصة من منطقة نابولي الإيطالية ومن جزيرة مالطة، ولذلك كانت هذه المراكز ذات تصميم عمراني يعتمد شكل الأبنية المحصنة ذات الأصل الأوربي وهي أبنية تأخذ شكل رقعة الشطرنج، وتهيكل حول محور رئيسي هو الطريق الوطني أو الولائي الذي يعبر المركز الذي تتوسطه المرافق الرئيسية وهي على التوالي: دار البلدية، والكنيسة، والسوق، ثم المدرسة



الاستيطان والتراث العمراني الكولونيالي في مراكز وادي الصفصاف في ولاية سكيكدة (الجزائر)

ليديا بوشامة

أستاذة مساعدة - قسم الجغرافيا
المدرسة العليا للأساتذة
قسنطينة - الجمهورية الجزائرية

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

ليديا بوشامة، الاستيطان والتراث العمراني الكولونيالي في مراكز وادي الصفصاف في ولاية سكيكدة (الجزائر).- دورية كان التاريخية.- العدد الواحد والعشرون: سبتمبر ٢٠١٣. ص ١٠٥ - ١١٢.

www.kanhistorique.org ISSN: 2090 - 0449

كان التاريخية: رقمية المواطن .. عربية الهوية .. عالمية الأصد

أولاً: الموقع (الإطار الطبيعي لمراكز الدراسة)

تقع مراكز الحروش، وصالح بوشعور، ورمضان جمال، والحدائق في تل الشمال القسنطيني وتحديداً على الامتداد الطولي لوادي الصفصاف، هذا الشريط الذي يتوسط حوضاً تجميعياً تقدر مساحته بـ ١٢٤,٦٨٠ هكتاراً^(١) يعتبر وادي الصفصاف ممراً طبيعياً منخفضاً، ومحوراً مركزياً يفصل كتلة قبائل القل (Kabylie de Collo) في الغرب عن حوض عزابة في الشرق، وهو ممتد على طول ٤٠ كم من الحروش إلى سكيكدة^(٢) في اتجاه جنوب شرق - شمال غرب في شكل رواق طويل مزدوج على مستوى منطقة الحدائق^(٣) ويمكن اعتباره أهم وأقرب منفذ يسمح بربط مرتفعات قسنطينة بسهل سكيكدة، وهو يمثل وحدة طبيعية متجانسة، ووسطاً سهلياً قليل الارتفاع يتميز بامتداد المساطب النهرية ذات الأهمية الاقتصادية والمجالية وسط تربة غنية ومتنوعة وأراض ذات قيمة فلاحية عالية.

ثانياً: الماضي التاريخي لمنطقة وادي الصفصاف (سكيكدة وظهيرها)

١/٢- فترات ما قبل الاحتلال الفرنسي:

تمتد هذه الفترات من بدايات التاريخ إلى نهاية الفترة العثمانية، أي أنها تشمل التاريخ القديم والوسيط إلى مشارف التاريخ الحديث، ولقد كانت هذه المنطقة المطلة على الخليج النوميدي المنفذ الرئيس للعاصمة النوميديّة سيرتا ولكل المنطقة السيرتية، ولا ريب أنها كانت عامرة على الدوام، غير أنها لا تزال تفتقر إلى الأبحاث الأثرية للكشف عن آثار الفترة النوميديّة على الخصوص لأن الأبحاث الأثرية خلال الفترة الكولونيالية ركزت بصفة خاصة على البحث في تاريخ و آثار الفترة الرومانية أكثر من غيرها.

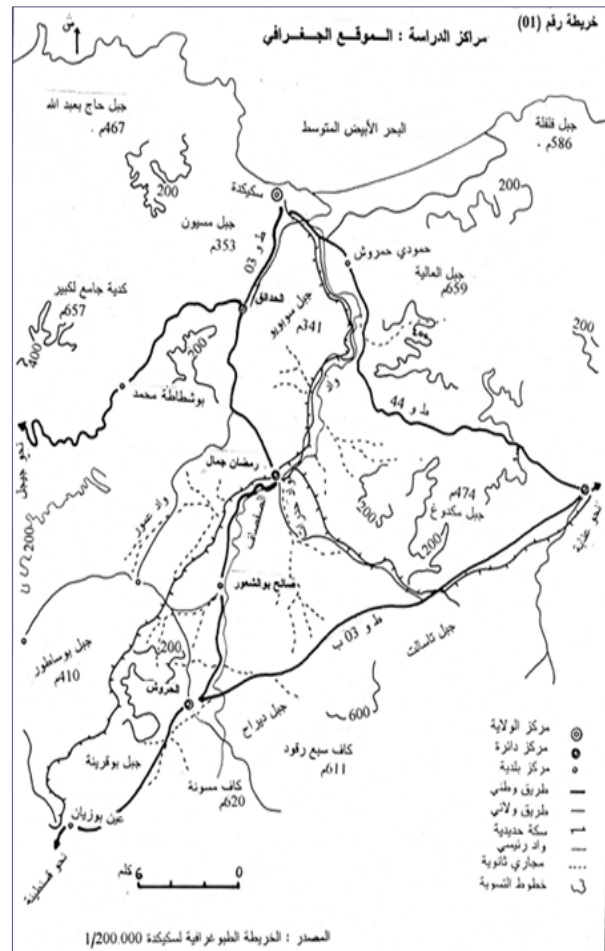
الفترة الرومانية:

خلال هذه الفترة تطورت مدينة روسيكاد (Rusicade) ذات المنشأ الليبي- النوميدي وأصبحت مركزاً حضرياً وتجاريّاً ذا أهمية كبيرة، فلقد كانت إحدى المدن الأربع المكوّنة للكنفدرالية السيرتية^(٤) ولقد اهتم الرومان بمد الطرق إليها على اعتبار أنها مركز إدارة الأنونة^(٥) (Annonae) لتسهيل حركة التنقل إليها من ظهيرها، وفي عهد الإمبراطور هادريان (١١٨-١٣٧م) أنشئ الطريق الروماني الرابط بين روسيكاد وسيرتا مروراً بوادي الصفصاف، ويعتبر هذا الأخير الظهير الزراعي لروسيكاد وتمّ استغلال هذا السهل الفيضي أحسن استغلال، حيث أنشئت مزارع على جانبي وادي الصفصاف تصلها قنوات للري^(٦)، وشهدت المنطقة ازدهاراً كبيراً تشهد عليه الآثار التي تدل على أنها كانت عامرة وتؤكد على الأقل وجود مزرعة كبرى (Domaine agricole) مكان مزرعة كروم العنب التي أنشئت أثناء الاحتلال الفرنسي، كما اكتشفت فسيفساء نادرة وأبار تعود إلى الفترة الرومانية في عين كسكاس، وعند بناء سد زردارة الذي يبعد عن الحروش بتسعة كيلومترات اكتشفت قبور عليها كتابات

وبعض المحلات. وينفرد مركز الحروش باعتباره مركزاً رئيساً بتقديم خدمات ذات مستوى أرقى-للكولون طبعاً- وفيه مرافق إقليمية كالمحكمة، والسجن، ومستشفى الأمراض العقلية التي شيدت وفق الطابع المعماري الكولونيالي وهي نموذج للعمارة الكولونيالية في مراكز وادي الصفصاف.

ومع بروز ظاهرة النمو الديمغرافي التي عرفتها الجزائر عمومًا على أبواب نهاية العهد الاستعماري الموافقة لقيام الثورة التحريرية، سيعرف الوضع العمراني في تلك المراكز تدهوراً كبيراً جزاء سياسة الحشد التي قام بها المستعمر، حيث قام بتهجير الريفيين من مساكنهم الريفية وجمعهم في محتشدات أنجزت بسرعة وفي ظروف استثنائية في إطار ما يُعرف بمخطط قسنطينة (١٩٥٧) وهي مساكن تحاصر الأبنية القديمة، ومع ذلك فإن بقاياها الآن ذات قيمة تاريخية وتعتبر من تراث حرب التحرير.

يعالج هذا المقال الاستيطان الكولونيالي في إقليم سكيكدة والوضعية التي آل إليها التراث المعماري الذي خلفه ذلك الاستيطان، وهذا في ظل التحولات الاجتماعية والاقتصادية الجذرية والعميقة التي عرفتها تلك المراكز التي أصبحت اليوم مدناً تشهد تغيرات تدريجية في نسيجها الحضري يكاد لا يترك أي أثر لذلك النمط المعماري الكولونيالي.



خريطة رقم (١)

مراكز الدراسة (الموقع الجغرافي)

٢/٢- فترة الاحتلال الفرنسي:

نشأة مراكز وادي الصفصاف

عند سقوط قسنطينة في أيدي الجيوش الفرنسية سنة ١٨٣٧، توجّب على قادة الاحتلال البحث لإيجاد منفذ على البحر في أقصر طريق يربطها به، حيث رأى الجنرال فالي (Vallé) أن السيطرة الفرنسية على إقليم قسنطينة غير مضمونة إلا بوجود طريق مؤمن وقريب يربط قسنطينة بأقرب ميناء على الساحل لتسهيل عملية التموين وتدعيم القوات الغازية، فاتخذ الطريق الروماني دون سابق معرفة معبراً لضمان حركة النقل^(١٢) عبر ممر وادي الصفصاف الذي أثار أنظار المعمرين إليه بحكم إستراتيجيته كرواق مفتوح ومؤهل طبيعياً لأداء ذلك الدور، إضافة إلى انفتاحه على ميناء سكيكدة، وهو ما يوفر لحركة الاستيطان الاستعماري وهي في بداياتها في المنطقة مجالاً بكرًا يمكن هيكلة عبر نظرة ذات أبعاد خاصة لإحداث تغيير جذري في المجال، يتبعها تحول في خريطة استغلال الأرض على صعيد الجانب التنظيمي والتقني والهيكلية، من ذلك أنه تم تكوين مجموعة من المحيطات الفلاحية المهيأة والمزودة بشبكة من المراكز الفلاحية وهي الحروش (HARROUCHE)، وغاستون فيل (GASTON-VILLE) (صالح بوشعور)، وسان شارل (SAINT-CHARLES)، (رمضان جمال)، وسانت أنطوان (SAINT-ANTOINE) (الحدائق)، بموازة الامتداد الطولي للطريق الروماني القديم على مسافات متقاربة كنموذج للتعمير في الريف في فترة قصيرة جداً ما بين (١٨٤٤ - ١٨٤٧) لهدف أمني واقتصادي، وتعتبر هذه المراكز رمزاً للتنفيذ الأوربي، حيث شهدت استيطاناً بشرياً مكثفاً عن طريق استقدام أفواج بشرية من جنسيات أوروبية عديدة ومن مناطق جغرافية مختلفة^(١٣)، وكان ذلك في البداية، ثم التحق بهم السكان الجزائريون تدريجياً فيما بعد لحاجة الكولون إليهم للعمل كأجراء في الغالب.

مراكز وادي الصفصاف

تطور عدد السكان خلال الفترة (١٨٥٤-١٩٥٤)

المراكز	الحروش	غاستون فيل (صالح بوشعور)	سان شارل (رمضان جمال)	سانت أنطوان (الحدائق)	المجموع
١٨٥٤ ^(١٤)	٥٢٢	٤٢٣	٨٧	٨٦	١١١٨
١٨٩١ ^(١٥)	٨٣٦	٢٨١	٢٥٥	١٠١٥	٢٣٨٧
١٩٣٢ ^(١٦)	٢٠٧٧	١٤٢٠	٩٠٧	١٦٤٣	٦٠٤٧
١٩٥٤ ^(١٧)	٥٦٣٤	٢٥٩٢	٢٦٤١	٣٧٤٣	١٤٦١٠

رومانية واضحة، إضافة إلى كتابات مثيلة لها اكتشفت في منطقة السعيد بوضبع التي تبعد عن الحروش بأربعة كيلومترات.^(١٧)
الفترة الإسلامية:

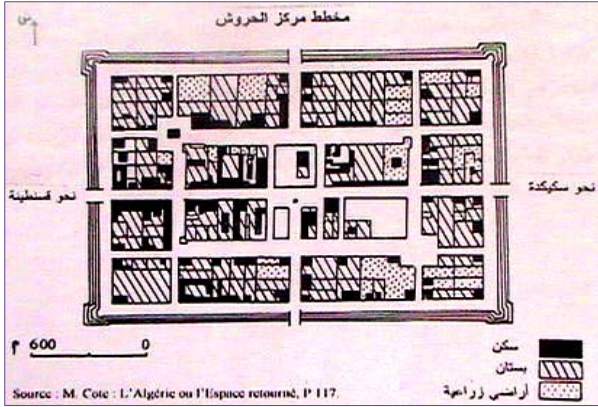
لم تحظ منطقة سكيكدة في العصور الوسطى باهتمام كبير من طرف الحكام الذين تعاقبوا في مختلف الفترات، وظلت محاطة بالغموض، وكل ما لدينا عنها هو مجرد سطور في كتب بعض الرحالة العرب والأوروبيين الذين زاروا المنطقة في فترات مختلفة كأبي عبيد البكري من جغرافي العصر الوسيط وشارل فيرو (Charles FERAUD) من مؤرخي الفترة الكولونيالية، فالرحالة الحسن الوزان المعروف باسم ليون الأفريقي^(١٨) في كتابه وصف أفريقيا زار المنطقة وسلك في سيره من قسنطينة (سیرتا)، وسكيكدة (روسيكاد) طريقاً يشبهها بالطرق الإيطالية. ولا ريب أنها بقايا للطريق الرومانية القديمة وأشار إلى وجود نشاط تجاري في المنطقة، وأن منطقة وادي الصفصاف تتمركز بها قبائل عديدة سواء في المناطق السهلية أو على حوافي الأودية يجمع أفرادها بين الزراعة وتربية الحيوانات ولا يوجد أي دليل على وجود تجمعات قروية.^(١٩)
العهد العثماني:

إن منطقة فليبييل (Philippeville) -وهو اسم سكيكدة في عهد الاستعمار الفرنسي- الغنية والمزدهرة على امتداد الوجود الروماني حسب وصف صولال^(٢٠)، لم تعد كذلك بالنسبة للأتراك فقد كانت كل المنطقة الممتدة من الحروش إلى سانت أنطوان (الحدائق) قبل الاحتلال الفرنسي تغمرها مستنقعات أسنة، محاطة بمراعٍ وأراضي بور مع قلة قليلة من بعض بساتين الفواكه، وزراعة قمح محدودة، وبعض أشجار الزيتون متوزعة خارج منخفض وادي الصفصاف، وقد أرجع ذلك إلى المظالم الاجتماعية المتمثلة في الضرائب الثقيلة التي فرضها باي قسنطينة على القبائل المحلية. وكان يقطن وادي الصفصاف العديد من القبائل، وكانت أغلبية المجال تابعة لقبيلة بني مهنا وهي أهم قبيلة في إقليم سكيكدة والتي يعود أصلها إلى بجاية، حيث تنقسم إلى أربعة عشائر هي بني بونعيم، أولاد خزر، مسلاوي، وبني بشير، وقد قدر عدد أفرادها سنة ١٨٣٧ بـ (٣٠٠٠) شخص.^(٢١)

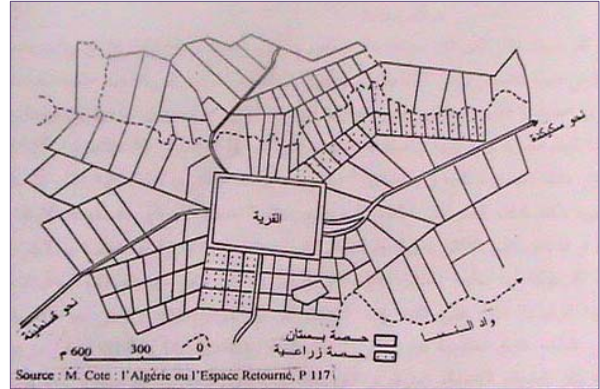
ثالثاً: لمحة عن نشأة مراكز الاستيطان الفرنسي

١/٣- مركز الحروش:

إن أول اسم للمكان الذي أقيم فيه هذا المركز هو مسلان الكبش، وكان عبارة عن مكان التقاء مختلف قبائل المنطقة لممارسة تجارة الأغنام، غير أن الاسم الحالي 'الحروش' يعود حسب رأي بعض كبار الشيوخ إلى وجود قبائل متعددة أي 'عروش' في المنطقة، ومنها حرفت الاسم إلى "الحروش"، غير أنه يستفاد من البحث في عمومية المنطقة أن اسم "حروش" يُطلق على الأرض البور 'الحرشاء' وهو الأصوب كما نرى.



شكل رقم (٢)
مخطط مركز الحروش



شكل رقم (١)
المحيط الفلاحي لمركز الحروش

٢/٣- مركز سانت أنطوان SAINT-ANTOINE (الحدائق):

تهيئة وادي الزمامنة أنشئت سنة ١٨٤١ مزرعة في طرف الوادي بجوار طريق قسنطينة - فليب فيل، إضافة إلى بعض المنازل لسكنى مستوطنين لا يزيد عددهم على خمسة، وأطلق على ذلك الموقع اسم حي سانت أنطوان الذي سيكون نواة حقيقية لقرية المستقبل، هذا الإنشاء دون سابق تخطيط في منطقة تغلب عليها المستنقعات جعل السكان عرضة للمرض، لكن ذلك لم يقف حجر عثرة أمام المعمرين، بل إن خصوبة التربة جعلتهم يكدّون في تجفيف تلك المستنقعات للحصول على أراضٍ جيّدة، فانضمّ إليهم معمرّون آخرون ليصل العدد الإجمالي سنة ١٨٤٣ إلى (٢٥) فردًا.

وانطلاقاً من مشروع تهيئة مدينة فليب - فيل المتضمن تعمير ١٠,٠٠٠ هكتار في حوضي الصفصاف، والزمامنة، تم خلق حزام من المراكز السكانية ذات الأهمية العسكرية، والفائدة الاقتصادية (الفلاحة)، وبذلك تم إنشاء ثلاث قرى في المنطقة الريفية المجاورة لفيليب فيل هي فالي في الناحية الشرقية للمدينة، وسانت أنطوان في الناحية الجنوبية لها، وأصبحت هذه الأخيرة مركزاً سكانياً أعلن عنه رسمياً في ٢ أوت (أغسطس) ١٨٤٤ بمجال يقدر بـ ٦٠٠ هكتار على بعد (٧ كلم) من مدينة فليب فيل، وفي سنة ١٨٥٤ أصبحت كل المساحة مستغلة في يد (٨٦) معمر وقد ارتفع عدد السكان سنة ١٩٥٤ ليصل إلى (٤٤٣) نسمة في حين بلغت مساحة مجال المركز ١٩٤٠ هكتار، وقد أصبحت القرية مركز بلدية سنة ١٩٥٨ بضم جزء من سطورة وجزء من دوار الزمامنة إليها.^(٢١)

٣/٣- مركز سان شارل SAINT-CHARLES (رمضان جمال):

في نهاية ١٨٤٥ كان هناك مجال واسع وشاغر من كل تعمير يقدر بـ ٢٤٠٠٠ هكتار يقع بين ريف فليب فيل ومجال الحروش على طول (٢٤ كلم)، لذلك أعدت دراسة من قبل اللجنة الإدارية لمدينة

في الخامس أكتوبر من العام ١٨٣٨ قام الجنرال فالي على رأس فيلق عسكري - يُقدر عدد أفرادها بأربعة آلاف شخص سلك بهم الطريق الروماني القديم- بحملة انتهت باحتلال المنطقة فاختر المكان المسمى حروش لإقامة معسكره وهو المكان الذي سيتجول إلى أول 'مركز' استعماري بين قسنطينة وسكيكدة على بعد (٥٢ كلم) من الأولى و(٣٢ كلم) من الثانية، وقد أعلن رسمياً عن تأسيس قرية الحروش بموجب مرسوم مؤرخ في ٢٢ مارس ١٨٤٤ على مساحة تقدر بـ ١٦٢١ هكتار. وقد ظل الوجود العسكري فيها قائماً من (١٨٣٨ إلى ١٨٤٦) وأهم معلمة لذلك الوجود هي الثكنة العسكرية بعمارها المتميّزة، كما أقيمت أول عين عمومية عند ملتقى الطرق وسط القرية.^(١٨)

وبمرسوم مؤرخ في ٢٢ أوت (أغسطس) ١٨٦١ أصبحت القرية مركز بلدية ذات صلاحيات كاملة^(١٩) (Commune de pleines exercices) لتحظى بإمكانيات مادية وبشرية معتبرة لتهيئة المجال وتنظيمه، حيث كان كل معمر يتحصل على قطعة أرض معدة للبناء ملحقة بحديقة في القرية إضافة إلى حصة زراعية تتراوح مساحتها من اثنين إلى عشرة هكتارات، وبحكم موقع القرية كنقطة عبور ملتقى الطرق القادمة من ثلاثة أقطاب هامة هي فليب فيل (سكيكدة)، وقسنطينة، وبون (عنابة)، إضافة إلى وجود سوق فلاحية هامة (تقام كل يوم جمعة)، فقد شهدت الحروش نزوحاً كبيراً، فبعد أن كان عدد السكان بها سنة ١٨٤٩ لا يتجاوز (٢٥٢) نسمة وكلهم أوروبيون،^(٢٠) ارتفع ليصل (٥٦٣٤) نسمة سنة ١٩٥٤.

٤/٣- صالح بو الشعور (GASTON-VILLE):

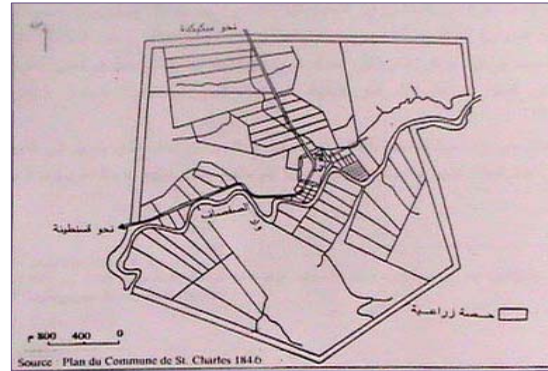
على بعد (٢٥ كلم) من فليب فيل وعلى الطريق الرابط بينها وبين قسنطينة بالقرب من مشى بؤر علي، تم التفكير في إنشاء قرية تتوسط المسافة الطويلة نوعًا ما بين سان شارل والحروش بغرض الحماية، وكذلك تكثيف الوسائل الضرورية للمزارع العديدة التي ستقام على وادي الصفصاف. ففي ٢٨ جوان (يونيو) قرر المجلس الإداري تنفيذ مشروع يتضمن توطين (٢٠٠٠٠) نسمة في وادي الصفصاف، ومن خلاله انتهى الأمر إلى إنشاء مركزين سكنيين جديدين هما روبر فيل (Robert ville) وقاستون فيل، هذا الاسم الأخير أعطي من قبل الملك ذاته لأهمية المشروع الذي لم يترك لقبيلة بني مهنا إلا (٨٠٠) هكتار على الضفة اليمنى لوادي الصفصاف، وبذلك أعلن رسميًا عن إنشاء المركز السكاني قاستون فيل في ١٦ نوفمبر ١٨٤٧ في مجال قدره (٥٣٥) هكتار لأربعين عائلة، وظل الوجود العسكري به حتى سنة ١٨٥١، وكان قد تحول إلى مستعمرة فلاحية في ١٨٤٨ ولترتفع مساحة المستعمرة الفلاحية بموجب مرسوم رئاسي في ١١ فيفري ١٨٥١ من (٥٣٥) هكتار إلى (١٨٧٠) هكتار، وبذلك ارتقت القرية إلى مركز بلدية ذات صلاحيات كاملة بموجب مرسوم صادر بتاريخ ٢٢ أغسطس (أوت) سنة ١٨٦١. وقد بلغ عدد سكان القرية خلال نفس السنة ٤٠١ أوروبي، ثم ارتفع العدد ليصل إلى (٩٤٩) نسمة سنة ١٩٥٤ بنسبة (٩٥,٢٥) أهلي وبلغت مساحة مجال المركز (٢٩٣٦) هكتار.^(٢٣)

لقد تم إنشاء كل هذه المراكز في ظرف قياسي، وعلى مسافات متقاربة على محور الطريق الوطني فليب فيل - قسنطينة (الحروش- قاستون فيل على مسافة ٧ كلم، قاستون فيل- سان شارل على مسافة ٨ كلم، وسان شارل - سانت أنطوان على مسافة ١٠ كلم) في نفس الفترة (١٨٤٤-١٨٤٧)، ولنفس الرغبة، ولأسباب أمنية واقتصادية، ولصالح ذات الجماعة (العنصر الأوربي)، على نفس الموضوع الاقتصادي، ضمن وحدة طبيعية متجانسة، وب نفس الشكل (قرية + محيط فلاحي).

رابعاً: التصميم العام للمراكز والمحيطات الفلاحية

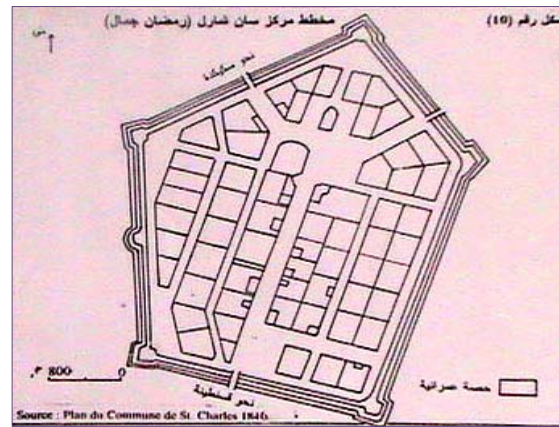
لقد كانت رغبة المستعمر في إنشاء سلسلة القرى هذه بهدف استصلاح الأراضي الزراعية كمركز للحياة اليومية يتوفر على مرافق تقدم خدمة مشتركة (عمومية) كالكنيسة والمدرسة، واعتبر السكن كعنصر لتهيئة المجال له علاقة وطيدة مع الإنتاج الفلاحي، حيث أن اللجنة الإدارية المكلفة بعملية الإنجاز حرصت على أن يكون موضع القرية وسط الأراضي الزراعية لتضمن قرب القرية من مكان العمل، أي أن الموضع في الوسط لتحقيق التكامل بين السكن والحصص الفلاحية التي تحيط بها، حيث أن كل معمر يحظى بحصة عمرانية وحصة كبستان، إضافة إلى حصة أو حصتين من الأراضي الزراعية للاستغلال تتراوح مساحتها ما بين ٢ إلى ١٠ هكتار، مع امتياز مجاني ومضمون لمدة خمس سنوات، وهذا ما^(٢٤)

فليب فيل لإنشاء مركز كولونيالي في ذلك المجال، وقد تطلب ذلك إصدار قرار نزع ملكية تقدر بحوالي ٨٠٠ هكتار من القبائل المجاورة، وخاصة قبيلة بني مهنا كخطوة أولى للاستيلاء على معظم المجال بحجة أن تلك القبائل لا تزرع إلا (٥/١) من المساحة، ولا يحق لها امتلاك مجال لا تستغله، وفي ٦ أبريل ١٨٤٧ أعلن رسميًا عن إنشاء المركز الاستيطاني "سان شارل" في مكان كان يُدعى أومال (Aumale) ل ٥٠ عائلة أوروبية في مساحة قدرها (٩٠٠) هكتار على بعد (١٧ كلم) من فليب فيل.



شكل رقم (٣)

المحيط الفلاحي لمركز سان شارل (رمضان جمال)



شكل رقم (٤)

مخطط مركز سان شارل (رمضان جمال)

استمر تطوّر المركز الكولونيالي حيث ارتقى في ٢٢ أوت (أغسطس) ١٨٦١ ليصبح مركز بلدية ذات صلاحيات كاملة، وفي ١٠ ديسمبر وانطلاقاً من مرسوم إمبراطوري تم توسيع مجال البلدية إلى (٥٢٣٣) هكتار، وابتداءً من سنة ١٨٧٠ أصبح المركز يشكل محطة هامة للسكة الحديدية الرابطة بين المدن الثلاث (فليب فيل- بون - قسنطينة)، وبعد أن كان عدد السكان ٨٧ أوروبياً سنة ١٨٤٥، ارتفع ليصل سنة ١٩٥٤ إلى (٩٥٩) نسمة بنسبة (٨٦,٠٢) أهلي (Indigènes) بينما بلغت مساحة مجال المركز (١٢٧٩) هكتار.^(٢٢)

ومع بروز ظاهرة النمو السكاني التي عرفتها هذه المراكز على أبواب نهاية العهد الاستعماري الموافقة لقيام الثورة التحريرية، وما صاحب ذلك من سياسة التجميع والحشد التي قام بها المستعمر، تم بناء محتشدات وهي مساكن تحاصر الأبنية القديمة، أنجزت في إطار مخطط قسنطينة سنة ١٩٥٧، ومع أنها أبنية متواضعة، إلا أنها تعدّ اليوم ذات قيمة تاريخية كبيرة، وتعتبر من تراث حرب التحرير، تمتاز بتقاسيمها الداخلية المتجانسة وشكلها البسيط، بُنيت جدرانها بالحجارة، أما الأسقف فهي من الخشب الذي يثبت فوقه القرميد، وهي كلها متساوية الارتفاع (طابق أرضي) يتربع كل مبنى على مساحة (٨٠ م^٢) ويعاني البعض منها اليوم من حالة متدهورة نظرًا لقدمها.

لا يزال هذا النمط العمراني موجودًا إلى اليوم في مركز الحروش، وصالح بوشعور، بينما تعرضت المباني الموجودة في مركز رمضان جمال إلى عملية التهديم في سبتمبر سنة ٢٠٠٠، وتمّ ترحيل سكانها، وتم بناء سكن اجتماعي في مكانها، وذلك في الجهة الشمالية للمركز على يمين الطريق الوطني رقم (٣)، بينما يندم هذا النمط من المباني في مركز سانت أنطون (الحدائق).

خامساً: الوضعية الحالية للتراث العمراني الكولونيالي للمراكز (حالة مركز الحروش)

في ظل هذه التحولات الاجتماعية والاقتصادية الجذرية والعميقة التي شهدتها هذه المراكز الكولونيالية، وهي تحولات تتجلى في تغييرات تدريجية للنسيج الحضري، سنحاول أدناه تقديم صورة عامة عن المركز الكولونيالي في الحروش كمثال لما آل إليه الوضع في باقي مراكز منطقة وادي الصفصاف.



صورة رقم (٣): تدهور حالة المباني السكنية في الأتوية القديمة والكثير منها في طريق السقوط، وتحتاج إلى دعم مالي، وتقني، وتوعوي، وتحسيس بأهمية التراث المعماري الكولونيالي

زحف المباني الحديثة:

وهي مبانٍ تعتمد الأسمنت والخرسانة دون مراعاة الجوانب الفنية والجمالية في شكل مناقض تمامًا لنمط العمران الكولونيالي، مما أدى إلى تشويه المنظر العام بسبب عدم التناسق بين الأنماط المعمارية الجديدة والنمط العمراني الذي يميز العمارة الكولونيالية التي على بساطتها لا تخلو دائمًا من العناصر الفنية الجمالية. كان نمط السكن الفردي القديم قد عرّف عدة تدخلات تتسم بالفوضى

يوضحه المخطط الجيومترى الذي على أساسه تم إعطاء الإطار العام لتلك المراكز والحصص الفلاحية التي تحيط بها.

كانت هذه المراكز ذات تصميم متين ومحصن معتمدًا على خطة القرى الاستيطانية ذات الأصل الأوربي التي تأخذ شكل شطرنج مقطوع إلى قطع هندسية تحتلها المباني المحدودة الارتفاع بطابق أو طابقين على الأكثر من فئة (R+1) على نمط المباني الريفية الفرنسية ذات الأسقف القرميدية الحمراء والمبنية بالحجارة والأجر، ولها ساحة داخلية مفتوحة وتلحق بها في كثير من الحالات إسطبلات وتطل واجهتها الرئيسية على الشارع حيث تهيكّل المباني حول محور رئيسي هو الطريق الوطني.

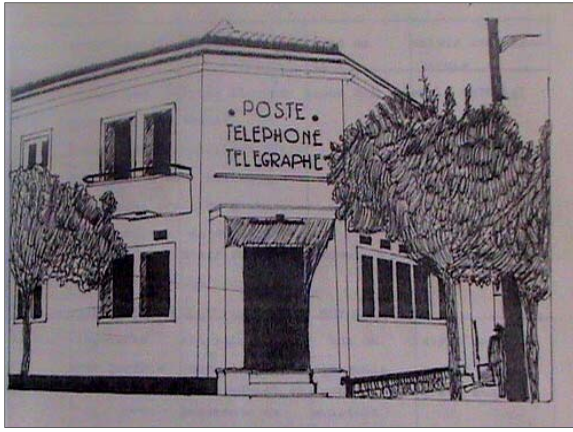
تتوسط القرية المرافق الرئيسية مثل دار البلدية، والكنيسة، والسوق، والمدرسة، وبعض المحلات ومؤسسات خدمية تؤدي وظيفة خدمة العالم الريفي. أما الخدمات ذات المستوى الأرق فتوجد في مركز الحروش باعتباره مركزًا رئيسًا للمقاطعة كالمحكمة، والسجن، والمستشفى العام، ومستشفى الأمراض العقلية، والمكتبة، وثلاث معاصر زيتون والتي تعد من أبرز أثار العمارة الكولونيالية في مراكز وادي الصفصاف، كما تكتسي الأسواق الأسبوعية في كل من الحروش ورمضان جمال بعدًا تاريخيًا منذ العهد الاستعماري الفرنسي، وتعتبر من الأسواق القديمة ذات النشاط التجاري المميز.



صورة رقم (١): طمس للشكل العمراني الكولونيالي في الجهة اليمنى من حي ٢٠ أوت ١٩٥٥ بالنواة القديمة لبلدة الحروش cours d'Hippone سابقًا مع استغلال مساحة الإسطبلات والمخازن والبساتين في التوسع العمراني واستخدام الطابق السفلي في التجارة



صورة رقم (٢): بنايات قديمة تجاورها أخرى جديدة مبنية بالخرسانة المسلحة والطوب (شارع بوقموزة Boulevard de collo سابقًا) بمركز الحروش مما تسبب في عدم انسجام وتناسق التعمير



صورة رقم (٦): مقر البريد والمواصلات بالحروش دخل حيز الخدمة في ٦ أبريل ١٩٥٢.



صورة رقم (٧): اليوم يشغل نفس الوظيفة وهو في حالة إنشائية متوسطة.

خاتمة

يتطلب إنقاذ التراث، بمفهومه الواسع، إدماجه في إطار استراتيجية للتنمية المستدامة، وإذا ما أريد لهذا التراث أن يساهم في التنمية المحلية، على الجهات الوصية أن تعمل على الحد من تدهوره، وإعادة تأهيله وتثمينه لجعله أحد المؤهلات الأساسية لتنمية الأنشطة الاقتصادية (السياحة، الصناعة التقليدية، التجارة... الخ)، وكذلك لتعزيز الهوية الثقافية على أساس مرجعية مشتركة بين مختلف الفاعلين. وقد سمحت لنا هذه الدراسة الموجزة بالخروج بالتوصيات الآتية:

- ضرورة تثمين التراث المادي التاريخي للمنطقة.
- إعادة تأهيل واجهات البنايات بالألوان القديمة تحت إشراف معماري.
- احترام التراث التاريخي عند انجاز عمليات التعمير (التوسعات العمرانية الجديدة).
- العمل على مساهمة سكان المنطقة في تنشيط الحياة المحلية وإشراكهم في إدارة وحماية تلك المنشآت.
- تكفل المصالح التقنية البلدية بإدارة ومتابعة ومراقبة أشغال الترميم التي تمول من طرف الدولة.

من طرف السكان غيرت من شكله الخارجي، حيث قامت بعض الأسر المالكة بتغيير نمط البناء إلى نمط معماري حديث مغيّر للنمط الأصلي باستعمال مواد بناء جديدة كالإسمنت المسلح، مما زاد من تدهور حالة العمران الكولونيالي الذي يتوسط هذه المراكز، نتج عنه حالة ازدواج لنمطين متناقضين يفصل بينهما في الزمان أكثر من قرن، مع تخصيص الطوابق الأرضية للنشاط التجاري المكثف، مما أدى إلى ارتفاع درجة تركيز وتراكم النشاطات التجارية بنواة المركز، وهي ظاهرة نلاحظها في كل المراكز وأحياناً تلتصق بنايات قديمة بأخرى جديدة مبنية بمواد بناء حديثة بالخرسانة المسلحة في صورة غاية في البشاعة.



صورة رقم (٤): اندثار بعض المعالم و الآثار الكولونيالية كالعيون أول عين تم بناؤها من طرف الجيش الفرنسي سنة ١٨٤٦ بمركز الحروش



صورة رقم (٥): تم تدهيمها سنة ١٩٧٦ وتحولت إلى التفاف دوراني خاص بالسيارات.

الهوامش:

- (19) Solal (E.): op-cit, p. 251.
 (20) Wilaya de Skikda, *Plan d'occupation du sol de la commune d'Elhadaek*, POS, Wilaya de Skikda, 1997.
 (21) Bertrand (L), *Histoire de Philippeville*, Imprimerie administrative et commerciale moderne, Philippeville 1903, pp. 9 - 12.
 (22) EL-koti (A.), les français dans la vallée du safsaf *synthèse* mai 1995.
 (23) Solal (E.), op-cit, p. 226.
 (24) Cote (Marc), *l'Algérie ou l'espace retourné*, Flammarion paris, 1989, p.116.

(*) هذه المراكز الاستيطانية التي أنشأها الاستعمار الفرنسي هي على التوالي: غاستون فيل (GASTON-VILLE)، وسان شارل (SAINT-) CHARLES)، وسانت انطوان (SAINT-ANTOINE) التي استعادت أسماءها بعد الاستقلال لتكون على التوالي صالح بوشعور، رمضان جمال، الحدائق)، وأخيرًا الحروش (HARROUCHE) التي احتفظت باسمها الجزائري.

- (1) Wilaya de Skikda, *Plan d'aménagement de la wilaya (PAW)*, ANAT, Alger, 1996, P. 113.
 (2) Cote (Marc), *Un bel exemple de reconversion du vignoble, le domaine'Boukhoulouf Braiek 'Bassin de Skikda*, institut des sciences de la terre 1983, P.3.
 (3) BOUKERZAZA (H.), *Décentralisation, développement locale et aménagement du territoire en Algérie, le cas de la wilaya de Skikda*, thèse de 3ème cycle Univ. Paul Valery Montpellier 1985, p.17
 (4) AGGOUN (L.), *les origines de la confédération cirtéenne*, In *revue des sciences humaines*, n° 30, université de Constantine, décembre 2008, pp. 57 -67 .

(٥) الأتونة: هي ضريبة عينية سنوية تدفعها مقاطعات الإمبراطورية الرومانية وكانت روسيكاد مقرًا للوالي المكلف بجمع هذه الضريبة (Praefectus annonae) أنظر:

http://fr.wikipedia.org/wiki/r%C3%A9fet_de_l'annonea available in 10 July 2013.

(٦) حمادة (صالح). مدينة سكيكدة: دراسة في جغرافية العمران، رسالة ماجستير الجزء الأول، معهد علوم الأرض جامعة قسنطينة، ١٩٧٩، ص ٤٢.

(٧) صخري (راج)، دليل مدينة الحروش وضواحيها، ١٩٩٧، ص ١٢.

- (8) Léon l'africain, *description de l'Afrique poularde 2T*, paris 1952, p. 43.
 (9) Salama (Pierre), *les voies romaines de l'Afrique du Nord*, Imprimerie officielle du Gouvernement Général de l'Algérie, Alger, 1951, Pp. 99.
 (10) Solal (E.): *Philippeville et sa région 1837-1870*, éd. la maison des livres-Alger-1957.
 (11) [https://fr.wikipedia.org/wiki/B%C3%A9ni_Imloul_\(Ath_Imloul\)](https://fr.wikipedia.org/wiki/B%C3%A9ni_Imloul_(Ath_Imloul)), le 3.7.2013, a 4,40 h.
 (12) Melia (Jean), *les bombardements de Bône et de Philippeville*, Berger-Levrault, éditeur Paris 1927, p. 72.
 (13) Montezon,(A.); de. *La Vérité sur l'Algérie*, (Province de Constantine), Paris 1851, p. 9.
 (14) SOLAL(E.), *Philippe ville et sa région 1837-1870*, éd. la maison des livres-Alger-1957.
 (15) ARRUS (R), *l'eau en Algérie de l'impérialisme au développement (1830-1962)* OPU Alger; PUG Grenoble 1985.
 (16) Répertoire statistique des communes de l'Algérie; mars 1932.
 (17) R.G.P.H.1954.
 (18) BOURAOUI (Ibtissem), *CROISSANCE DE PETITES VILLES ALGERIENNES. CAS D'EL HARROUCH*, MEMOIRE du magister Sous la direction de Pr. LAYEB Hafid, DEPARTEMENT D'ARCHITECTURE ET D'URBANISME, Université de Constantine 2007, pp. 122-125.